ولى منزل فى الثرى ما يُزار ولو رامه زائر ما عرف

فهل يرضيه أن يكون قبره معروفا مَزورا تحج إليه الوفود ؟

وقد ود أن يكون جدثه فى معزل عن أجداث الناس كما بعد هو فى حياته عنهم :

يا جدثى حسبك من رتبة أنك من أجداثهم معزلا

وقد دفن فى معزل من الناس إلا بعض قرابة ؛ ولكنى أحسبه لا يكفيه هذا الاعتزال وهو فى المدينة بين الدور . كان بوده أن يدفن فى مهمه بعيداً عن الأحياء والموتى :

وددت وفاتى فى مهمه به لامع ليس بالمُعلَم[1]

أموت به واحدا مفردا وأدفن فى الأرض لم تظلم[2]

وأبعد عن قائل : لا سلمت وآخر قال : ألا يا اسلم

أحاذر أن تجعلوا مضجعى إلى كافر حان أو مسلم[3]

إذا قال ضايقتنى فى المحل قلت : أساءوا ولم أعلم

(الكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

(١) اللامع السراب .

(٢) لم تظلم لم يعهد فيها الحفر من قبل .

(٣) فى النسخة المطبوعة : بخان وأحسبها حان ، من الحين .

أسرار الشـــعراء

للأستاذ صلاح الدين المنجد

لن تجد صاحب شغف بتسقط أسرار الأدباء ، ولا طُلَعةً يتحسس أخبار القراء مثلى . ولا أعرف منهلاً أحلى رشفاً ، وأكثر ريّاً ، وأبلغ عظة من هذه الأسرار ، فهى إن لم تهذب وتحذّر تلذ وتهز . وقد تجد فيها ما ترومه . وقد تلتبس عليك الأمور فلا تجد شيئاً . لأن بعض الأدباء يخفون عمداً أسرارهم الصحاح ، ويوهمون الناس أسراراً أخرى مزيفات ، أو يلوذون بالصمت ، فيلصق الناس بهم أشاوى لا عهد لهم بها ، ولكنهم يرضون عنها ، فالمهم أن يكونوا أحدوثة القوم وسمر المجالس . وما عليهم بعد ذلك إن صح ما ينسبون إليهم ، أو بطل ، ولكن ما رأيك إذا عثرت على طائفة من رسائل نفر من الأدباء ؛ رسائل الأصدقاء إلى الأصدقاء ، التى يفضى بها الإنسان بدخيلة أمره ومكنون سره ومضنون شكواه ؟ إنها اعترافات لا يشوبها زيف ولا يعتريها بطلان ، فلنقرأ أنموذجات منها ولننظر ماذا تلقى فيها .

* * *

ديموند فلاور "Desmond Flower" أديب انكليزى معاصر ؛ شغف بتتبع أسرار الأدباء . فانتخب نهاد المائة رسالة ، من رسائل الأدباء من أيام شكسبير حتى أيام لورانس ، أعنى منذ منتصف القرن السادس عشر ، إلى هذه الأيام . فأخرجها فى كتاب ضخم طريف سماه « فى اقتفاء أثر الشعر » "The Pursuit of Poetry" نقلوه إلى الفرنسية فى فجر هذه الحرب وسموه "La Poursuite de la Poésie" . وهو كتاب يغنيك عن ألف كتاب ، وسفر لا يحوجك ، لكى تفهم ما فيه ، إلى كثير من العناء . يصور لك من خلال الرسائل أولئك القراء فترف حولك أطيافهم ، وتتمثل فى خاطرك أحاديثهم ، وتراهم بقلبك ، فتحسب أنك معهم ثم تشعر بعد هذا أنك صديق لهم ، تحبهم ويحبونك ، وتؤثرهم ويؤثرونك ، فيفضون إليك بدخائلهم وأسرارهم ، ويطلعونك على آرائهم وأفكارهم ، بل قد تعلم هجسات قلوبهم ونجويات خواطرهم . وقد تجد فيهم لطفاً وعطفاً ، وقد تلقى قسوة وخشونة . ثم إن شئت بعد ذلك أن تعرف شعرهم وطبعهم عليه ، وتترهم وبراعتهم فيه فذلك طوع يديك .

يقول فلاور فى مقدمة الكتاب : لا تخدع نفسك أبداً ، ولا تجهد كثيراً ، ليس لديك وسيلة لمعرفة جوهر الشعر ، والنفوذ إليه ، والوقوف عليه ، سوى القراءة . ينبغى أن تقرأ شعر الشاعر مرة ومرة ، ثم تعيد قراءته مثلها ، وقد تصل فى النهاية إلى ما تريد . ولكن إذا تواردت عليك هذه الأسئلة : كيف ينظم الشاعر ؟ أى نوع من الناس هو الشاعر ؟ كيف يبدع ، وكيف يخلق ؟ فليس لديك شىء أكثر جدوى من الرجوع إلى سيرة حياته ورسائله الخاصات إلى صحبه وأصدقائه .

اقرأ هذه الرسائل ، تعرف الشاعر حق المعرفة ، وتعلم أن عمل الشاعر شاق صعب ، طويل مجهد ، يبعث الملل ويفضى إلى التعب . وتقف على المشقة التى يلاقيها الكتاب ، للبحث عن لفظة أو صوغ جملة يؤدى بهما المعنى الواسع العميق الذى يزخر

به صدره . إن من المعانى ما يكون عظيماً واسعاً ، ولكن الثوب ضيق ، ولابد من البحث والتنقيب ، ليكون الثوب قدر المعنى ، فيُظهر محاسنه ولا يخفيها ، ويستر عيوبه فلا يبديها ، ويؤثر فى نفس السامع ويحييها .

الحق أن الأديب يجهد ويتعب . ولكنه لا يشكو ولا يتأفف . وقد يبدو ذلك من فلتات لسانه أو قلمه ، وقد يدعى أن لا أسهل عنده سهولة ولا أشد تملكاً من أن ينظم لك أو يكتب ما تشاء ، وفى أى وقت تشاء ، على حين يكون قد قطع الليالى فى البحث عن حرف أو فى نظم بيت .

إن هذه الرسائل مجمع حى للقراء الإنكليز وكتابهم . هذا دريدن Dryden ، وهذا وردسورث Wordsworth وذلك كيتز Keats وذاك شلى Shelly ، وهنا تيسون Tennyson وهناك هاردى T. Hardy ، وبينهما بيرون Byron فكلهم أمامى أقرأ رسائلهم فأتمثل وأفكر .

هذا دريدن يكتب إلى ناشر أحد كتبه بلهجة فيها عتب وتهديد :

« إنك لن تستطيع أن تعنى كثيراً بطبع كتابى طبعة جديدة مع التصحيحات التى أشرت إليها . إن أقل خطأ يسوؤنى إلى الأبد » .

وإذا كانت غلطة واحدة تسوء دريدن إلى الأبد ، فإن وردسورث كان أشد قسوة من دريدن وأقل بناشر كتبه رحمة فقد كتب إليه مرة : « لقد وجدت غلطة فى مقدمة مؤلفى الجديد لقد طبعوا Lucretia بدلا من Lucretius . فينبغى أن تصحح هذه الكلمة فى كل نسخة طبعت » .

فماذا يقول الناشرون اليوم لو أتاهم وردسورث يطلب إليهم القلم ذلك وكان المطبوع آلافاً من الكتاب ؟

ثم حول وجهك نحو ولتر سكوت W. Scott القصصى البارع . الذى يقول عنه هوغو « إنه يهزنى ويتلاعب بى كما تهز الريح الورق فى الخريف » . تحول إليه واسمعه يتحدث عن الإيجاز فى الكتابة ويدعو إليه . ويشمئز من النعوت التى يحشو بها الكتاب السطور لا لمعنى فيها ولا لسحر بها . ولكن للاطناب عند الكتاب ، ولاستقامة وزن الشعر عند الشعراء . هذه الاستقامة التى يقتضيها علم العروض . حتى إنك لتراه فى بعض الأحايين مشرأً بالشعر المرسل الحر محاربا الحشو والتطويل أى حرب ، معيباً على پوب Pope أنه ملأ ترجمته الأليادة حشواً .

وعلى نحو من هذا ، تجد الشاعر الأميركى ويتمان Whitman فإنه يعجب بالإيجاز ويأنف من التطويل . ويكتب عند ما أخرج مجموعته الشعرية المسماة Rou le ments de Tom Cour : « إننى سعيد ، لأننى استطعت أن أنزه شعرى من كل حشو . وإننى لأنتشى عند ما أشعر أن كل كلمة فى القصيدة لا غنى عنها ، سواء أكان ذلك لوزن الشعر الذى راعيت حفظه ، أم للمعنى الذى أردت إظهاره » .

ولندع سكوت ينادى بالإيجاز ، ولننظر شارل لامب ، الدعبوبة المرح ، يكتب إلى وردسورث رسالة طريفة ، يتهزأ فيها من الكتاب الذين ينبهون قراءهم أو ينصحون لهم : « قد تعلمون وقد لا تعلمون » ، « ولا يحسبن القارىء أبدا » ، « وتخيلوا إذا استطعتم » وغير ذلك من شبيهات هذه التعبيرات التى يعلو الكاتب فيها ويحسب القارىء طفلاً أمامه يلقنه ويعلمه أو يشك بعلمه .

فماذا يقول لامب لو قرأ ما يسوقه الدكتور طه حسين فى ثنايا كتاباته من هذه التعبيرات ؟

ولامب إلى ذلك يعيب على شعراء عصره أنهم يشطون فى وصف المناظر الطبيعية بأوصاف مبتذلة « السماء الزرقاء والشمس الذهبية المتلألئة ... » فماذا يقول لو سمع اليوم شعراءنا وكتابنا ما يزالون يقولون « النسيم العليل والماء النمير والهواء الرقيق ؟ »

استمع إليه يكتب إلى صديقه وردسورث ، وقد دعاه ليقضى أياماً فى الجبال . هذه الرسالة التى تثير دهشتك وشغفك :

« لا يسوؤنى كثيراً أنى لم أر الجبل قط فى حياتى ، فلقد عشت دائماً فى لندن . وكنت أشعر دائماً بميل شديد اليها لا يقل عن ميل أصحاب الجبال إلى الطبيعة الجميلة . إن الدكاكين المصفوفة والمصانع التى لا عهد لهما والتجارة والزبائن والسيارات الكبيرات والصغيرات والمسارح والمقاهى . وهذا الفوران حول « كوفنت غاردن » وهؤلاء النساء اللندنيات وحراس الليل والسكارى والصجيج ، وتلك الحركة الدائمة التى لا تنقطع فى أية ساعة استيقظت